

www.shabcenter.ly  
info@shabcenter.ly

المدار  
الجديد



برعاية



# نظرات في بعض الخصائص الجمالية والفنية لسور القرآن الكريم

محمد عمران

## نظرات في بعض الخصائص الجمالية والفنية لسور القرآن الكريم

بقلم: محمد عمران.

لا يقف النص القرآني عند حدود كونه دستوراً تشريعياً أو كتاب هداية فحسب، بل يتسامى ليكون معجزة بيانية خالدة، تأخذ بالألباب وتملك نياط القلوب. إن الناظر في سور القرآن الكريم، مكّيها ومدنيّها، يجد نفسه أمام «نسيج لغوي» متفرد، وطرّاز خاص من القول هيمن على أساليب العرب فأعجزهم، وتحدى بلاغتهم فأفحمهم.

وفيما يلي طوافٌ متأنٍ حول أبرز الخصائص الجمالية والفنية التي تنتظم بها سور الكتاب العزيز:

### أولاً: المعمار الصوتي والإيقاع الداخلي:

لعل أول ما يطرق سمع المتلقي للقرآن هو ذلك الجرس الإيقاعي الأخاذ الذي يسري في أوصال الآيات. هذا الإيقاع ليس نتاج «تفعليلات عروضية» كما في الشعر، بل هو نابع من التناسق العجيب بين الحروف والكلمات، وما يعرف بـ «الفاصلة القرآنية».

## تناغم المدود والحركات:

تارة تأتي الآيات قصيرة، سريعة، ذات إيقاع حماسي - كما في السور المكية مثل النزعات والمرسلات - لتقرع القلوب وتناسب أحوال القيامة والإنذار. وتارة تأتي طويلة، هادئة، - كما في السور المدنية كالبقرة والمائدة - لتناسب مقام التشريع والتفصيل.

## جرس الحروف:

يختار القرآن اللفظة التي يصور جرسها المعنى بدقة؛ فحين يصف العذاب والشدة يستخدم حروفاً قوية (كالقاف والطاء والصاد)، وحين يصف الرحمة والنعيم يستخدم حروفاً لينة هامسة.

## ثانياً: التصوير الفني (تجسيد المعاني):

من أبرز خصائص القرآن الجمالية ما أصله سيد قطب - رحمه الله - في كتابه: «التصوير الفني في القرآن»؛ فهو يبين لك أن القرآن لا يسوق المعاني تجريدية جافة، بل يحيلها إلى صور شاخصة متحركة، فالقرآن يجعل من المسموع مرئياً، ومن المعقول محسوساً، ومن الجامد كائناً ينبض بالحياة.

مثال:

عند الحديث عن الفجر، لا يقول «طلع الفجر»، بل يقول: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فيجعل صفات الحياة حاضرة في الصباح وكأنه كائن حي يستيقظ.

وعند الحديث عن مشاهد القيامة ينقلك القرآن من مقاعد القراءة إلى ساحة الحشر، فترى الجبال وهي تُنسف، والبحار وهي تُسجر، بأسلوب يجعل الخيال حاضراً وكأن المشاهد في رأي العين.

### ثالثاً: دقة الانتقاء اللفظي (الإعجاز اللغوي):

تتجلى العظمة الفنية في أن كل لفظة في القرآن وضعت بميزان دقيق، بحيث لو نُزعت كلمة ووُضع مرادفها مكانها لاختل المعنى، أو ضاع الجرس، أو فقدت الدلالة.

### الترادف الظاهري:

يفرق القرآن بدقة مذهلة بين الألفاظ المتقاربة؛ فهو يميز بين الرؤية بالعين وبين النظر الذي قد لا يصحبه إِبصار، وبين «السنة» التي تغلب عليها الشدة والجذب، و«العام» الذي يغلب عليه الرخاء، وبين «الخوف» و«الخشية»، وغير ذلك كثير.

## الإيجاز البليغ:

قد تجمع السورة الواحدة أو الآية القصيرة معاني تضيق عنها المجلدات، وهو ما يعرف بـ «جوامع الكلم»، حيث كثافة المعنى في قلة المبنى دون إخلال.

## رابعاً: الوحدة الموضوعية (التناسب والترابط):

قد يظن القارئ العجل أن السورة القرآنية الطويلة تنتقل من موضوع لآخر بلا رابط - من عقيدة إلى قصة، ثم تشريع، ثم دعاء - ولكن المتأمل يدرك وجود «خيط ناظم» ووحدة موضوعية تحكم السورة من مطلعها إلى ختامها.

## حسن التخلص:

ينتقل السياق القرآني من غرض إلى غرض بنعومة وانسيابية مذهلة، فلا تشعر بنتوء أو انقطاع، بل هو تدفق متصل يخدم المحور الرئيس للسورة.

## بدايات السور وخواتيمها:

هناك «تجاوب فني» بديع بين فواتح السور وخواتيمها، فغالباً ما تأتي الخاتمة لتؤكد ما بدأت به السورة، أو لتجيب عن تساؤل طرح في بدايتها؛ مما يمنح السورة إطاراً فنياً محكماً.

## خامساً: القصة القرآنية:

لم تأتِ القصة في القرآن للتسلية التاريخية، بل جاءت موظفةً لخدمة الغرض الديني بأسلوب فني رفيع يعتمد على:

الحوار:

فهو الذي يكشف مكونات النفوس وصراع الشخصيات.

## التنوع في العرض:

فالقصة الواحدة - كقصة موسى عليه السلام - تُعرض في سور متعددة، ولكن في كل مرة تُساق بأسلوب مختلف، وزاوية مغايرة، وإيقاع جديد يناسب جو السورة التي وردت فيها، فلا يمل القارئ من التكرار، بل يكتشف في كل مرة جديداً.

ولعلنا نأخذ سورة مريم مثلاً على ما سبق بيانه بقراءة في الجماليات الفنية والبيانية:

تعد سورة مريم نسيجاً فنياً فريداً في كتاب الله؛ فهي تمتاز برقة حانية تلامس شغاف القلوب، وتنساب آياتها كجدول رقيق يغسل هموم النفس. إنها سورة «العاطفة الدينية» بامتياز، وتتجلى خصائصها الجمالية في النقاط التالية:

## 1. المعمار الصوتي: إيقاع الرء والياء (الفاصلة الرخيمة):

لعل أبرز ما يميز سورة مريم هو ذلك الجرس الموسيقي الشجي الذي يسيطر على فواصلها. تنتهي معظم آيات السورة بالألف المقصورة المسبوقة غالباً بياء أو نون (زكريا، خفيا، شقيا، مريم، رضيا).

### دلالة الصوت:

هذا المدّ الطويل في نهايات الآيات يمنح التلاوة امتداداً صوتياً يوحى بالاسترحام، والنداء، والنجوى، والحزن الشفيف. إنه إيقاع لا يقرع الآذان بقوة - كما في سورة القارعة - بل ينساب بنعومة ليناسب جو «المناجاة» الذي يطغى على السورة.

### تناغم القافية مع الموقف:

حينما كان زكريا عليه السلام يناجي ربه خفية، وحين كانت مريم عليها السلام تن في مخاضها، جاءت الفاصلة القرآنية بمدود لينة لتجسد صوت الزفرات والآهات والرجاء.

## 2. الوحدة الموضوعية: هيمنة (الرحمة):

تنظم السورة وحدة شعورية مركزية تدور حول اسم الله (الرحمن). لقد تكرر هذا الاسم في السورة (16) مرة، وهو معدل تكرار مدهش مقارنة بحجم السورة.

## التوظيف الفني:

لم يأتِ التكرار عبثاً، بل جاء ليصبغ كل أحداث السورة بصبغة الرحمة؛ فميلاد يحيى رحمة، واصطفاء مريم رحمة، وكلام عيسى في المهد رحمة، وحتى في مقام التحذير والإنذار، استخدم القرآن اسم «الرحمن» لفتح باب الرجاء: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾.

### 3. جماليات المكان: (أدب العزلة والخلوة):

فنياً، تعتمد السورة في تصوير مشاهدتها على تقنية «الانعزال». الشخص في سورة مريم غالباً ما يكونون في حالة خلوة وابتعاد عن الضجيج، مما يضفي على السورة جواً من الروحانية العالية والقداسة.

المشهد الأول: زكريا ينادي ربه ﴿نِدَاءً خَفِيًّا﴾ في المحراب.

المشهد الثاني: مريم ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ثم ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

المشهد الثالث: اعتزال إبراهيم لأبيه وقومه ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. هذا التركيز على «المكان القصي» و«الخلوة» يخدم الغرض الفني للسورة؛ وهو أن الرحمة والكرامات تنزل حين ينقطع العبد عن الخلق ويتصل بالخالق.

#### 4. رقي الحوار (الأدب الإبراهيمي نموذجاً):

تقدم السورة نموذجاً فنياً رفيعاً في أدب الحوار من خلال قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه.

**التدرج العاطفي:** تكرار لفظة ﴿يَا أَبَتِ﴾ في بداية كل جملة يجسد قمة الاستعطاف والبر.

**المفارقة العاطفية:** يقابل الأب هذا اللطف بالعنف والقسوة ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، فيرد الابن (إبراهيم) - عليه السلام - بالسلام والوعد بالاستغفار. هذا التضاد بين «منطق الإيمان الوديح» و«منطق الكفر الجافي» يبرز جمالية الحق وقبح الباطل دون الحاجة لتعليق مباشر.

#### 5. الصدمة الشعورية في الخاتمة: (الانتقال من الهمس إلى الرعد):

بعد أن سارت السورة في معظم آياتها على وتيرة هادئة ومناجاة رقيقة، يحدث «انقلاب تصويري» مذهل في خواتيمها عند الحديث عن ادعاء الولد لله.

تتحول الفواصل والكلمات من الرقة إلى القوة: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا \* تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾.

هذا التباين الفني المقصود يحدث هزة عنيفة في وجدان المتلقي؛ فكأن الكون الذي هدأ لسمع مناجاة زكريا عليه السلام وأنين مريم عليها السلام، قد انتفض وغضب غضبة عارمة غيرة على توحيد الله.

## خلاصة:

إن سورة مريم عليها السلام ليست مجرد سرد لقصص الأنبياء، بل هي لوحة فنية متكاملة، استُخدمت فيها الأصوات اللينة، وصور العزلة، وتكرار اسم «الرحمن»، لتشكيل حالة شعورية تأخذ القارئ من صخب الحياة المادية إلى «محراب الروح»، حيث لا صوت يعلو فوق صوت الرحمة.

## في الختام نقول:

إن الخصائص الجمالية لسور القرآن الكريم ليست مجرد «زينة لفظية» أو محسنات بديعية متكلفة، بل هي جماليات مقصودة لذاتها لخدمة المعنى، ولتيسير وصول الهداية إلى النفس البشرية من أقصر الطرق وأجملها. إنه نصٌّ يتجاوز حدود الزمان والمكان، ليظل - بخصائصه الفنية - المعجزة الخالدة التي لا تبلى جدتها ولا تنقضي عجائبها.